محكم

# حفريات في المقدّس والدنيوي في الإسلام


العروسي لسمر

باحث تونسي



Mominoun Without Borders

مؤسسة دراسات وأبحاث

قسم الدراسات الدينية

## مدخل:

تثير العلاقة بين المقدس والدنيوي عددا من الإشكاليات والقضايا، يصعب على الباحث إيجاد حل نهائي لها والقطع فيها بشكل جازم، وهي إشكاليات مفتوحة ومتجددة بتجدد الرؤى والمناهج والمقاربات التي نوظفها. وبدا حضور جدلية المقدس والدنيوي في السياق الإسلامي أمرا يصعب تتبعه والوقوف على دقائقه. فإذا كان الدين يقدم أجوبة جاهزة ومتوقعة ومطمئنة ومبنية على مسلمات وبديهيات لا تقبل النقاش، فإن المباحث الأنثربولوجية على وجه الدقة تبقي الأبواب مفتوحة على السؤال، وتواجه أكثر المسلمات الدينية يقينا، وترمي بها في دائرة الشك والحيرة والقلق، انطلاقا من ماهية المقدس والمدنس مرورا بالعلاقة بينهما وصولا بخصائص كل مفهوم وتمايزه عن الآخر. فما معنى المقدس؟ وما علاقته بالمدنس؟ وما الصلة بين المقدس ومفاهيم الحرام والطهر والمحرّم؟ وما هي تجليات المقدس هل يكمن في الآلهة وينبعث من مشاعر الخوف والرهبة والانجذاب؟ أم يتلبس بالمكان والزمان والأسطورة؟ هل هو من صنع الإنسان؟ وما الحاجة إلى خلقه؟

## 1- ماهية المقدس:

يصعب الإلمام بتعريف دقيق للمقدس ونهائي وذلك لعدة أسباب، يتمثل أهمها في صلة المقدس بالعديد من الحقول المعرفية؛ فالمفهوم يسوده الغموض واللبس مما يستوجب تفكيكه وتحليل البنى الأولية التي يتكون منها.[1] ويتسع المفهوم ليشمل العديد من المصطلحات المتناقضة، فيتداخل أحيانا بالمدنس والعنف لذلك يقول رينيه جيرار: "في كثير من الطقوس تظهر الضحية بطريقتين متعارضتين تارة "كشيء مقدس جدا" يشكل الامتناع عنه إهمالا خطيرا، وتارة على خلاف ذلك كنوع من الجرم يشكل ارتكابه مجازفات خطيرة جدا."[2] وهكذا يمتزج القربان بالمحرم والفعل المحظور على أساس أنه يشمل"المحرمات والارتباطات الأساسية للوجود الإنساني"[3] ويلتبس المقدس بالعديد من المفاهيم الأخرى، ولذلك يعسر الإمساك به، وفي هذا السياق يقول عبد الهادي عبد الرحمان: "لا معنى أن نتحدث عن شيء لا نستطيع أن نمسك به إلا في حالته الدارجة، وهو زلق دائما بسبب كثافة العلاقات التي تخترقه. ولذا لا يمكن للباحث أن يلتقط هذه العلاقات في لحظة واحدة."[4] ويظل مفهوم المقدس غامضا ويصعب الإحاطة به، وفي محاولة لتحديد المقدس نرصد علاقاته وتجلياته من خلال ثنائيات كجدلية الطاهر والدنس.

---

[1]- *Joseph Chelhode, Les structures du sacré chez les Arabes, Editions Maisonneuve et Larose, Paris 1967*

[2]- *René Girard, La violence et le sacré, Editions Bernard Grasset,1972, p 8*

[3]- *André Dumas, article sacré, Encyclopeadia Universalis, Tome20*

[4]- عبد الهادي عبد الرحمان، **عرش المقدس**، ط1، دار الطليعة، بيروت 2000 ، ص 8

## 2- جدلية المقدس والمدنس:

لجأ العديد من الدارسين إلى التعريف بالخلف والنقيض؛ فالمقدس (sacré) نقيض المدنس (profane) والمقدس نقيض الدنيوي. ونجد ترجمة لهذا التناقض في التصورات الدينية على وجه الخصوص، فقد لاحظ روجيه كايوا "أن الإنسان المتدين هو من يعتقد قبل كل شيء بوجود وسطين متكاملين: واحد يستطيع الإنسان أن يتحرك فيه بعيدا عن كل قلق ورعدة، ولكن من دون أن يورط نشاطه هذا غير شخصه السطحي، وآخر يضبط فيه كل ميل من ميوله ويحتويه ويوجهه شعور حميم بالتبعية، حتى ليلفى نفسه متورطا فيه بلا تحفظ. كلا هذين العالمين: المقدس والمدنس يتحدد بالآخر، حتى ليستحيل بمعزل عن هذه المقارنة إعطاء تعريف دقيق لأي منهما. إنهما يتلاغيان ويتعارضان".[5]

ولئن بدت العلاقة بينهما جدلية وصراعية في الآن نفسه، فإن الأمر يحصل في إطار شعوري ونفسي، لأن الإنسان مرّ من مرحلة الخوف من المقدس إلى توظيفه واستعماله أداة في خدمة مصالح وتبرير واقعه، ولهذا تتأسس العلاقة بين المقدس والدنيوي على التناقض والرغبة في استحواذ كل طرف على الآخر. فالمقدس "لا يلتقي بالمدنس إلا لكي ينتفي أحدهما، ويظل الآخر قائما. وبذلك يتشكل كل طرف بوصفه نظاما قائما خالصا ومتجانسا ومختلفا ومعارضا...للطرف الآخر."[6] وامتد هذا الإلغاء ليشمل الأرضية المفاهيمية، حتى أمسى من الصعب إدراك المقدس بفعل عدم وجود مصطلح واضح يحيط بالحقل التداولي للمفهوم. فنجد شبكة من المفاهيم والدلالات من فئة المدنس والرجس والدنيوي واليومي. وهكذا يتضح أن العلاقة بين المفهومين متحركة وغير مستقرة، لأن "مكونات العالم الدنيوي ليست غائبة عن مجال المقدس، سواء على مستوى الوعي أو السلوكيات، والاستمرارية حاضرة ...في كثير من الطقوس"[7] وقد فصل مرسيا إلياد بين المفهومين، لكنه في النهاية أقر بإمكانية المرور بين الفضائين بطريقة متعاكسة من المقدس غلى المدنس أو من المدنس إلى المقدس؛[8] وهكذا فإن المقدس جزء من استراتيجية تفاعلية لا تؤمن بالثبات والانغلاق، فيتماهى المقدس بنقيضه ويداخله دون الذوبان فيه وفقدان خصوصياته. "فليس هناك إذن ما هو متمحض للقداسة دائما، ولا ما هو خالص للدنيوي والدنس على مدى الدهر، والمقدس ونقيضه يختلفان من ثقافة إلى أخرى ومن زمان إلى آخر؛ فالمقدس ليس معطى جاهزا غيبيا لا علاقة له بالإرادة والفعل البشريين، لأنه في الحقيقة أمر مكتسب من إنشاء الإنسانية."[9] وبهذا المعنى يمكن اعتبار المقدس فضاءً رحبا ومفتوحا؛ أما "دائرة الأشياء المقدسة، فلا يمكن أن تغلق بصفة نهائية...فصفة مقدس ليست موقوفة على شيء معيّن بل كل شيء، وكيف ما كان يمكن أن يصبح مقدسا،

---

[5]- روجيه كايوا، **الإنسان والمقدس**، ترجمة سميرة ريشا، ط1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت 2010، ص ص 35-36

[6]- نور الدين الزاهي، "المقدس في الثقافة العربية الإسلامية"، مجلة الفكر العربي المعاصر 108/109، شتاء 1999، ص 29

[7]- المرجع نفسه، ص 31

[8]- Mircéa Eliade, Le sacré et le profane, Gallimard 2005, p 60

[9]- حمادي المسعودي، "مدخل إلى دراسة المقدس في الثقافة العربية الإسلامية" مجلة آداب القيروان، العدد7، ص 214

وقداسته تطال كل شيء له علاقة به."[10] ولما كان الدنيوي منفتحا وفي جدل مع المقدس فإن كل شيء يمكن أن يصبح محل قداسة. وقريبا من هذا المنطق، يقول مرسيا إلياد: "من الثابت أن كل ما استعان به الإنسان، ما شعر به ما صادفه أو أحبّه أمكن تحوله إلى قدسية."[11]؛ بمعنى أن الشيء لا يستمد قداسته من ذاته، بل بما يضفيه عليه الآخرون من صفات القداسة؛ وفي السياق ذاته يقر كايوا بأنه "ليس هناك شيء لا يمكن أن يغدو مقر للقدسي، وأن يرتدي على هذا النحو في نظر الفرد والجماعة رداءً فريدا، ليس كمثله شيء. كذلك لا يوجد شيء لا يمكن تجريده من القدسي."[12] وقد واجه الإسلام هذه الحقيقة عند سعيه لتوحيد الآلهة وجعلها مفارقة متعالية، وما زاد من صعوبة موقفه هو تصور العرب للمقدس؛ فقد كانوا يعظمون البيت الحرام "ومن لم يقدر على بناء بيت، نصب حجرا أمام الحرم وأمام غيره، مما استحسن، ثم طاف به كطوافه بالبيت، وسموها الأنصاب."[13] فلا يوجد مشكلة في نعت شيء ما بالقداسة واقتصار المفهوم عليه. وهكذا يبدو المقدس شاسعا معبرا عن القوة الخفية واللا شخصية الرهيبة التي يعتقد بأنها وراء كل سلطان. ومن هذا المنطلق، يلاحظ يوسف شلحود في دراسته لبنى المقدس عند العرب قبل الإسلام وبعده أن لا وجود لمكان أو شيء محدد للقدسي لدى العرب. فيقول: " القدسي كان يراه العربي قبل الإسلام في كل مكان تقريبا؛ في الرمال المتحركة، في وحدة ليل الصحراء، في الدم المراق الذي يطلب الثأر."[14] وكان العربي ينظر إلى المقدس في العديد من الأمكنة كينابيع المياه والجن وللتعوذ من هذه القوى يحيط العربي نفسه بشبكة من المحرمات تحميه من الاحتكاك بالمقدس، وتيسّر عليه إمكانية التحرك في عالم محايد.

ويثير غموض المقدس وعدم حصره مسألة التمييز بينه وبين المدنس، فإذا كان كل شيء يمكن إضفاء القداسة عليه كيف يمكن نعت أشياء بعينها بالمدنس؟ أي أن غموض المقدس يستدعي توضيح المدنس، ويبدو أنهما يختلطان ويمتزجان، بل يمتحان من معين واحد. فإذا كان القدسي هو ما يتعارض مع المدنس فإننا بمجرد أن "ننكب على توضيح طبيعته، وتحديد كيفية هذا التعارض، نصطدم بأعظم العقبات. ولا يمكن تطبيق أية صيغة، مهما كانت أولية على كثافة الوقائع التي تشبه المتاهة."[15]

لكن من بين المميزات البسيطة أن المقدس يجد في الدين الملاذ المطلق لاحتضانه والتجلي من خلاله ولممارسة هيبته وقوة سلطانه واستحواذه على النفوس؛ فالدين هو "الفكرة الأم التي يتمحور حولها ...فالأساطير والمعتقدات تحلل مضمونه على طريقتها، والطقوس تستخدم خصائصه، والكهنة يجسدونه والمعابد والأماكن

[10]- E. Durkheim, Les formes élémentaires de la vie religieuse, 2[e] édition, Paris 1925 pp50-51
[11]- Mircéa Eliade, Traité d'histoire des religions, Payot, Paris 1964, p24
[12]- R. Caillois, Article sacré, Encyclopédie Française, T XIX p5
[13]- الكلبي (204هـ)، **الأصنام**، تحقيق أحمد زكي باشا، القاهرة، د.ت، ص 33
[14]- يوسف شلحت، **بنى المقدس لدى العرب قبل الإسلام وبعده**، تعريب خليل أحمد خليل، ط2، دار الطليعة، بيروت 2004، ص 23
[15]- *R. Caillois, L'homme et le sacré,Payot, 1939 p*11

المقدسة والصروح الدينية توطده وتجذره في الأرض."[16] وبهذا المعنى، يتجلى المقدس من خلال بعض الخصائص والمميزات، فيشكل "خاصة ثابتة أو عابرة لبعض الأشياء (أدوات العبادة) أو الكائنات (الملك والكاهن) أو الأمكنة...أو الأزمنة... ليس هناك ما لا يصلح لأن يكون مقرا للمقدس، الذي يخلع عليه سحرا لا يضاهي في نظر الفرد و الجماعة، ولا هناك من يتعذر نزعه منه."[17] فالمقدس هو صفة تطلق على الأشياء أكثر مما هو هوية متأصلة فيها أو جوهر ملازم ومحايث للكائنات والأشياء، ولهذا "ليس المقدس صفة تملكها الأشياء في حد ذاتها، بل هو عطية سرية، متى فاضت على الأشياء أو الكائنات أصبغت عليها تلك الصفة."[18] وبما أن صفة القداسة مضافة إلى الأشياء، فإن ذلك لا يعني التعامل معها بالطريقة نفسها، بل بمجرد حلول إضفاء القداسة عليها يتغير التعامل معها، فلا يمكن التعامل بحرية وبحياد معها نتيجة لما يبعث المقدس من مشاعر الرهبة والهلع أو الانجذاب في النفوس، وهو الملاذ والأمان من الخوف. وكانت العرب قبل الإسلام ترى هذا الاعتقاد في الآلهة. وفي هذا السياق، يقول الكلبي: "كان لطي صنم يقال له الفَلْسُ، وكان أنفا أحمر في وسط جبلهم ...أسود كأنه تمثال إنسان. وكانوا يعبدونه ويهدون إليه ويعترون عنده عتائرهم، ولا يأتيه خائف إلا أمن عنده..."[19] واستمر هذا التصور مع القرآن، فالله هو الحامي للحرم، في قوله تعالى: "فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا البَيْتِ الذِّي أَطْعَمَهُم مِن جُوعٍ وَآَمَنَهُم مِن خَوْفٍ."[20]

ولا يفترض بالدنيوي الدخول في ألفة مع المقدس خوفا من عدوى المقدس، فيصبح محظورا محفوفا بالمخاطر، وفي الوقت نفسه يتعين حماية المقدس من كل اعتداء دنيوي يجرده من فعاليته وجاذبيته، ويحد من قدرته العاتية والخاطفة. فحضور كائن دنيوي واحد يكفي لطرد بركة الآلهة، مما يستوجب وضع حواجز عازلة تفصل بين القطبين. وفي هذا الصدد، يقول دوركهايم: "يستحيل على هذين النوعين أن يتقاربا ويحتفظ كل منهما بطبيعته الخاصة."[21] ولعل هذا التقارب والتداخل يطرح مفهوما جديدا، وهو مفهوم المحرم، لأن "حالة الحرام يمكنها أن تكون ملازمة لشيء ويمكن فرضها بالعمل العسفي من قبل سلطة عليا، وأخيرا يمكن اكتسابها من خلال الاتصال بشيء أو شخص محرم."[22] فالمقدس هو الحرام ولذلك يقال بيت الله الحرام، والحرم هو الفضاء المحمي. ويلتصق بمفهوم الطهارة أيضا، لأن المقدس أداة للتطهير، وهو عكس الدنس والمدنس. ويسهم المقدس في الطهارة وتخليص الناس من الدنس. ويلاحظ كايوا أن "احتفالات التطهر التي تحرر ذوي الفقيد، في آخر الحداد، من رجسهم، إنما تطبع أيضا اللحظة التي يكون فيها الميت قد تحول من قوة شريرة ومخيفة إلى روح

[16]- روجيه كايوا، **الإنسان والمقدس**، ص 36، والكلام لهنري هوبير
[17]- روجيه كايوا، المرجع نفسه، ص 37
[18]- المرجع نفسه، ص 37
[19]- الكلبي، **الأصنام**، ص 59
[20]- سورة قريش/3-4
[21]- المرجع نفسه، ص 39
[22]- Webster, Le Tabou ,p45 (مصدر ذكره يوسف شلحت، بنى المقدس، ص26)

كريمة ومكرمة، بعد تطهيرها والصلاة عليها."[23] ولهذا رسخت الثقافة الإسلامية الصلاة على الميت؛ فهي ذات وظائف تطهيرية تفصل حالة الميت من الدنس إلى الطهارة، وتوصف الزكاة أيضا بالطهارة في الإسلام. وتعود هذه التصورات من الناحية الأنثربولوجية إلى عادات بدائية تقيم تعاويذ للاحتماء من رجس الميت والوقاية من المصائب التي قد يجلبها، ولذلك ينصح بعدم لمسه.[24] وقد تتصل الدناسة بكل ما هو خارج عن النظام، ولذلك يمكن وسم المدنس بكل "ما يشارك في انقلاب النظام الطبيعي أو النظام الاجتماعي، إن هذين النظامين متمازجان بقوة في حياة البدائي، ويكون مدنسا كل ما يمنع الجماعة من الإنعام على كل أفرادها بحياة هادئة بلا مشاكل فردية، بلا مفاجأة."[25] وهكذا يتضح صعوبة محاصرة الحقل التداولي للمقدس في تداخله بالمدنس على وجه الخصوص.

## 3- المقدس والحرام في القرآن:

بالعودة إلى مادة [قدس] في القرآن الكريم نجد تواترها عشر مرات. ولم ترد في صيغة الفعل إلا مرة واحدة في قوله تعالى: "نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ"[26] ووردت بقية الاستعمالات في صيغ المشتق وأربعة منها، تشير إلى الملاك جبريل وتسمه بروح القدس، كقوله تعالى: "قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ"[27] وورد استعماله للإحالة على الله القدوس في مناسبتين في قوله تعالى: "هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ"[28] والآية الأولى من سورة الجمعة. ونجد ثلاث مرات للدلالة على المكان الطاهر والمقدس في قوله تعالى: "إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى"[29] والمقدس هنا هو الوادي ثم يذكر الأرض المقدسة في قوله تعالى: "يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُم وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُم"[30]. وهكذا يتسع مفهوم المقدس في القرآن رغم ندرته لكل العوالم، فيشمل الله والملائكة والأرض بتفاصيلها. والمقدس اسم من أسماء الله الحسنى اختص به ويفيد الطهارة والتعظيم، ومن القرائن على ذلك أن الطبري في تفسيره للآية الثلاثين من سورة البقرة، يقول: "التقديس هو التطهير والتعظيم، ومنه قولهم: سبّوح وقدّوس؛ يعني بقولهم "سبّوح" تنزيه الله، وبقولهم "قدّوس طهارة له وتعظيم...و"نقّدس لك" ننسبك إلى ما هو من صفاتك من الطهارة

---

[23]- *R. Caillois, L'homme et le sacré, p7*

[24]- عند تغسيل الميت لا يلمس باليد مباشرة بل يحرص على وضع عازل فيغسّل بقطعة من القماش أو القطن تفاديا للمس وانتقال الدنس.

[25]- J. Cazeneuve, Les rites et la condition humaine, P.U.F, Paris 1958, p51

[26]- سورة البقرة/ 30

[27]- سورة النحل /102، انظر كذلك سورة البقرة/87 -253 وسورة المائدة/110

[28]- سورة الحشر/23، وانظر سورة الجمعة/1

[29]- سورة طه/12 ، وكذلك سورة النازعات/ 16

[30]- سورة المائدة/ 21

من الأدناس."[31] فالمقدس مقترن بالطاهر والمتعالي البعيد عن الدنس والله وحده الجدير بالقداسة دون سواه، لأنه اختص بمقام الربوبية التي تستوجب التقديس.

## 4- الطاهر والدنس:

كانت كلمة مقدس تعني "الشخص أو الشيء الذي يستحيل لمسه من دون أن يُرجِّس أو يُرجَّس"؛[32] فالذي يرتكب جريمة بحق الدين والدولة يقع فصله، ويعلن مقدسا. فالكلمة تدل على القوى الفائقة للطبيعة، والتي يفضّل الابتعاد عنها، ولم تكن الحضارات القديمة تفرق بين الحظر الناجم عن القداسة، وذاك الذي يوحي به الخوف من حيث المعاني اللغوية.

وتعتبر جدلية المقدس والدنس ركنا مركزيا في النظام الديني الذي يبنى على هاتين المقولتين. "وما من نظام ديني، حتى بالمفهوم الأعم، إلا وتمارس فيه مقولتا الطاهر(pur) والنجس (impur) دورا أساسيا، ومع تمايز مظاهر الحياة الجماعية وتشكيلها ميادين مستقلة نسبيا... تكتسب كلمتا: الطاهر والنجس معاني جديدة."[33] ويبدو أن الكلمتين كانتا مختلطتين من حيث الدلالات، ولم يكن التمييز بينهما إلا بفعل الضغوطات الحضارية. ولهذا ينبه روجيه كايوا على أن "جل ما يجمع اليوم بين اللفظتين المذكورتين هو نسيج واه من الاستعارات والصلات المتبادلة، لكن كل ما هنالك يوحي بأنهما كانتا مندمجتين في البداية كل الاندماج، ومستعملتين للتعبير عن التجليات المتعددة لكل معقّد لم يخطر ببال امرئ أن يفك عناصره."[34] وهذا يعني أن الطاهر والنجس شكلا غطاء لشتى أنواع التعارضات بينهما. والطاهر هو ما لا تختلط ماهيته بما يفسده، وفيه معاني الصفاء والخلوص؛ ويعني فعل طهّر في اللغات البدائية الشفاء وفك السحر في آن واحد.

ومهما كانت التعارضات بين الطاهر والدنس، فإنهما قوتان ملتبستان؛ لأن الطاهر والنجس لا يدلان على تعارض أصلي بقدر ما يدلان على قطبية (polarité) دينية. ولهذا يشبه روجي كايوا المقولتين بمفهومي الخير والشر، فيقول: "إنهما تمارسان في عالم المقدّس دورا شبيها بذلك الذي يمارسه مفهوما الخير والشر في المجال الدنيوي."[35] ومن دلالات هذا التمايز والتعاضد بين الطاهر والنجس أن بقي المعنى الأصلي للمقدس يحمل دلالات مزدوجة ومتجاذبة؛ فالحرام له معنى المقدس والممنوع المساس به، مما يجعله محافظا على طهره وصفائه ونقائه، لكنه يحمل معنى المدنس والرجس والذنب. وظل المعنى منقسما في الثقافة العربية بين مفهومي الحرام بالمعنى الأنثربولوجي وما يحمل من دلالات عميقة، والحرام بالمعنى الفقهي الذي يقترن بالذنب

---

[31]- ابن جرير الطبري (ت310هـ)، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 2001، المجلد 1، ص 278

[32]- روجيه كايوا، **الإنسان والمقدس**، ص 56

[33]- روجيه كايوا، المرجع نفسه، ص 53

[34]- المرجع نفسه، ص 53

[35]- المرجع نفسه، ص 54

والجناية والمحظور. واستعمل القرآن لفظ حرام في ثمانين مناسبة تقريبا في صيغة الفعل حرّم والاسم حرم ومحرمات والصفة حُرم وحرام. ويكال الحرام في القرآن ثلاثة أصناف: كائنات وأشياء مدنسة كالميتة والدم ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، والخمرة، وهو تحريم لأنواع معينة من المأكول والمشروب، وتحريم لأشياء دنيوية وعلاقات معينة كزواج المحارم. وتحريم زمان ومكان معينين كمنع دخول الحرم على المدنسين وتحريم أكل لحوم الحيوانات عن طريق الصيد عند الإحرام والحج. وكان الحرم محل قداسة لدى العرب حتى قبل الإسلام، ويرى الكلبي وجود علاقة بين الحرم وعبادة الأوثان في قوله: "وكان الذي سلخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجرا من حجارة الحرم، تعظيما للحرم وصبابة بمكة."[36]

وقد استبعد القرآن ما اعتبره رجسا، لأنه يمس من القداسة وبمجرد لمسه أو تناوله يحول الوضعية من مقدسة إلى مدنسة. وفي القرآن يجري غالبا وضع الطاهر مقابل الخالص ومن الأمثلة، قوله تعالى: "إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا."[37] ويستوجب هذا الزوج طاهر/دنس العديد من الثنائيات كالطيبات/الخبائث. والطهارة بالمعنى الديني ليس بالضرورة مرادفة للنظافة؛ فالحيوان يعتبر نجسا عندما لا يذبح بحسب التعاليم الشرعية في الإسلام[38]، ويبقى صالحا للاستهلاك، حتى وإن كان وسخا أو مريضا طالما تم ذبحه وفق التعاليم الشرعية، ولهذا فإن الطهارة ملازمة للقداسة الدينية. ويبدو أن المفاهيم المتصلة بالطهارة في العبادة كالصلاة مثلا تعود إلى الفترة المدنية، ويعطي الإسلام في بدايته أهمية قصوى للطهارة الخلقية أكثر من الجسدية. ويرى بعض الأنثربولوجيين أن التفريق بين المدنس والمقدس مفهوم متأخر، لأن البدائيين لا يفرقون دوما بين الأمرين. ويبدو أن التعارض بين الطاهر والمدنس يعود إلى تعارض بين قوتين، و"هو أشبه بذلك الذي يضع عالما من الطاقات في مواجهة عالم من الجواهر المادية. هذا التعارض بين قوى وأشياء ينتج منه على الفور أمر بالغ الأهمية بالنسبة إلى مفهومي الطاهر والنجس اللذين يبدوان في غاية الحراك والتعاوض والالتباس."[39] ونلاحظ أن الكائنات والأشياء والحالات التي توصف في سياق ما بالدنس، يمكن أن تصبح مقدسة في مناسبات أخرى، فالصفتان "يمكن أن تنسبا مداورة إلى هذا الكائن أو ذاك الشيء أو تلك الحالة، تبعا لاتجاه الفاعلية نحو الخير أو الشر."[40] وبهذا تظل العلاقة ملتبسة ومعقدة طالما هي في حيّز الإمكان. وكان البدائي يقوم بالعديد من الشعائر والاحتياطات للتعوذ من القوى الخطرة الكامنة في النجس، ويحرص ألا يقترب منه إلا بعد تلك الشعائر. ويسود الاعتقاد أن تلك التعاويذ قادرة على تحييد الأرواح الشريرة التي تؤذي. وجاء

[36]- الكلبي، **الأصنام**، ص 6
[37]- سورة الأحزاب/33، وكذلك سورة المدّثر/4-5
[38]- يوسف شلحت، **بنى المقدس**، ص 35
[39]- روجيه كايوا، **الإنسان والمقدس**، ص 54
[40]- المرجع نفسه، ص 55

الإسلام فعقلن القدسي وجعل الله مصدره الأوحد، وصارت القداسة موقوفة على السماء فقط، لكن المقدس ظل يتجلى في العديد من الشعائر والطقوس والفضاءات.

## 5- المكان المقدس:

تقترن القداسة ببعض الأمكنة، وقد ذكر الله تعالى الوادي المقدس طوى والأرض المقدسة والوادي المقدس يشير إلى البركة والطهارة، ولذلك استوجب خلع النعلين في إشارة إلى طقوس الطهارة واختصار رمزي للمكان المقدس؛ فقد أمر الله موسى بخلع النعلين، ليجعل من المكان الذي ستطأه قدماه حيّزا محددا للقداسة، إذ لا يمكنه أن يظل على تلك الحالة في مكان فسيح وشاسع.[41] والمكان الذي ينعت بالمقدس هو فضاء للحضور الإلهي واحتضان السر المقدس، لأنه "مرتبط بتجلي قوى إلهية فيه أو بوجود رفات أضحت في عداد المقدسات بسبب المنزلة التي حظي بها أصحابها لدى أنصارهم، مثل أضرحة الصحابة والأولياء الصالحين."[42]

والمكان المقدس هو مجال معزول عن المدنس والدنيوي، وقبل الإسلام كان الحرم المكي محل قداسة وكذلك كان الحمى، وهو مكان منتشر في الثقافات السامية. ويذكر روجيه كايوا أن للحمى طابعا قدسيا، وهو "المكان المقدس في الديانات السامية، حيث تحظر ممارسة العمل الجنسي وملاحقة الطرائد وقطع الأشجار واقتلاع العشب، كما يتوقف عند حدوده عمل العدالة."[43] ويصبغ المكان قداسته على كل من يؤمه، حتى وإن كان شخصا مدنسا، ومن هنا تأتي القيمة الحمائية للمكان المقدس، لأن "قدسية هذا المكان تجعل المجرم الذي يلجأ إليه مكرسا، وبالتالي مصونا من كل اعتداء."[44] أما الحيوان الذي يخترق هذا المكان وبسبب هذه القدسية، فيعتبر مفقودا. وفي كتاب الأصنام، نجد قصة شاهدة على ذلك، فيذكر أن صنم الفَلْسَ محمي بحمى و"لا يطرد أحد طريدة فيلجأ بها إليه إلا تركت له ولم تُخفر حويّتُه."[45] ثم ابتدع العرب الحُمس، ويتكون من أهل الحرم والقبائل الحليفة، والتزموا بالعديد من الضوابط؛ فلا ينبغي للحمس أن "يدخلوا بيوتا من شعر ولا يستظلوا إن استظلوا إلا في بيوت الأدم ما كانوا حرما... وما ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاؤوا به معهم من الحل في الحرم."[46] وتواصلت بعض الطقوس مع الإسلام فالمسلم يلتزم بجملة من الشعائر عند أداء مناسك الحج ويطوف في ثياب خاصة، وهي من لوازم الطهارة لأن "اكتساب الطهارة يأتي نتيجة التقيّد بمجموعة ممارسات طقسية، وكما أثبت دوركهايم فالمطلوب، أولا، هو فصل الذات عن العالم الدنيوي تدريجيا، بغية التمكن من اختراق عالم المقدس، دونما خطر أو أذية. ينبغي التخلي عن الإنساني قبل الولوج إلى الإلهي، ما يعني أن

---

[41]- حمادي المسعودي، **مدخل إلى دراسة المقدس في الثقافة العربية الإسلامية**، ص 217

[42]- المرجع نفسه، ص 218

[43]- روجيه كايوا، **الإنسان والمقدس**، ص 58

[44]- المرجع نفسه، ص 58

[45]- الكلبي، **الأصنام**، ص 59

[46]- ابن حبيب (ت245هـ)، **المنمّق في أخبار قريش**، تحقيق خورشيد أحمد فاروق، عالم الكتب 1985 ص 127

شعائر التطهير هي، بالدرجة الأولى، ممارسات سلبية، تصنّف في خانة الإمساك والامتناع."[47] وتظهر هذه السلوكات في الإعراض عن كل ما يميز الدنيوي من نشاطات والتطهر منه، ويتجلى ذلك القطع مع سير الحياة العادية عن طريق الصوم والإمساك عن مخالطة الآخرين والامتناع عن الكلام والنوم أو تناول بعض الأطعمة والأشربة، وعدم الإقبال على العلاقات الجنسية، وهي قيود تعد الإنسان لمواجهة الإلهي.

ويفرض المكان المقدس جملة من اللوازم التي تجعله مفصولا عن غيره من الأمكنة، وقد عرف مرسيا إلياد المكان المقدس بقوله: "كل مكان مقدس ينطوي على تجل مقدّس، وعلى تفجّر للقدسي ينتج عنه انفصال إقليم عن محيطه الكوني، فيجعله مختلفا عنه نوعيا."[48] والمكان المقدس يتصف بالعزلة عن المدنس و"يحظر على الإنسان دخوله عموما، لأن روحا خفية تجلت فيه واتخذته مسكنا لها... يبني المؤمنون عمما للقوة العليا بيتا يغدو مركز عبادة، كما توضع الأماكن المحيطة بالحرم في حماه وتحت رعايته."[49] ونعت القرآن مكة بمقر الآلهة، فهي بيت الله الحرام، والله هو رب البيت العتيق. وعرف عرب الجزيرة عبادة الأصنام وخصوها ببيت "فكانوا ينحرون ويذبحون عند كلها ويتقربون إليها، وهم على ذلك عارفون بفضل الكعبة عليها: يحجّونها ويعتمرون إليها."[50] فالمكان المقدس فضاء للتجلي الإلهي والتقرب منه.[51] ويسود الاعتقاد أن المكان المقدس محمي ولا تطاله الكوارث، لأنه يجسد مركز العالم وسرّة الأرض ولقربه من الفوق وعالم الآلهة، ونظرا لما يتضمن الرمز العمودي من القداسة والخلود. وفي هذا السياق، يقول جيلبير دوران: "إن الهم الأساسي للرمزية العمودية هو قبل أي شيء آخر نصب سلم بوجه الزمن والموت، وهذا الخلود الارتقائي هو تقليد مشترك... وهو واضح أيضا في صور مألوفة لدينا، عنينا بها سلم يعقوب...هو السلم نفسه الذي رأى النبي محمد (ص) أرواح المؤمنين تصعد عليه."[52] وهذه الرموز وسائل للوصول إلى السماء، ويقدح الأمر مقابلة بين العمودية الروحانية والسطحية الشهوانية أو السقوط.[53] ويثير الارتقاء مسألة التخلص من العرضي والدنيوي، ويلاحظ مرسيا إلياد أن "السلّم والدرج يمثلان من الناحية التشكيلية تغيير المستوى مما يجعل الانتقال ممكنا من نسق إلى آخر."[54] ويحمل العلو إمكانية الإلهام، وكثيرا ما يقع المكان المقدس بالجبل، وهذا أمر متواتر في الكتب المقدسة، وكذلك في الإسلام يقع غار حراء في جبل، وهذا ما دعا باشلار إلى الإقرار بأن الأرض المرتفعة توحي بالإلهام في

[47]- روجيه كايوا، **الإنسان والمقدس**، ص 61

[48]- *M.Eliade, Le sacré et le profane, p75*

[49]- *Joseph Chelhod, Les structures du sacré chez les Arabes, p213*

[50]- الكلبي، **الأصنام**، ص 33

[51]- العديد من الأمكنة اتصلت قداستها بأشخاص بعينهم كمزارات الأولياء ومراقد الشيعة، مثل النجف وكربلاء وعلاقتها بالحسين الذي قتل فيها سنة 61هـ ، والنجف ارتبط بعلي بن أبي طالب الذي مات مقتولا سنة 40هـ ، واختلف في مكان دفنه، أما مدينة قم، فيعزى تقديسها إلى احتوائها على ضريح فاطمة المعصومة أخت الإمام الشيعي الثامن علي بن موسى الرضى.

[52]- جيلبير دوران، **الأنثربولوجيا رموزها أساطيرها أنساقها**، ترجمة مصباح الصمد، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات وللنشر والتوزيع، بيروت 1991، ص101

[53]- المرجع نفسه، ص 102

[54]- *M. Eliade, Images et symboles , Les Essais , Paris 1952*, p63

قوله: "أقل هضبة لمن يستوحي أحلامه من الطبيعة، هي ملهمة"[55] ولهذا يشيد الناس أمكنة تتصف بالعلو، مثل الكعبة والأهرامات والمعابد والمساجد، وكثيرا ما تكون في مركز المكان وتتصف بالإطلالة والإشراف على بقية الأماكن[56]. ويمكن أن ينسحب الأمر على الزمن، فنجده منقسما إلى زمن مقدس وآخر دنيوي.

## 6- الزمن المقدس:

ينفصل الزمن إلى مقدس وعادي أو دنيوي، وكان العرب قبل الإسلام يقسمون الأشهر إلى أشهر عادية وأخرى حرم، وكانوا يعظمون أشهر الحج؛ فقد ذكر ابن حبيب في المنمّق إن: "قريش وغيرها من العرب لا يحضرون سوق المجاز إلا محرمين بالحج، وكانوا يعظمون أن يأتوا شيئا من المحارم أو يغير بعض على بعض، لأنها أشهر حرم، وإنما سمي الفجار لما صنع فيه من الفجور."[57] ومن الأيام ما هو أكثر قداسة من غيره كيوم الجمعة بالنسبة إلى المسلمين، والسبت عند اليهود، والأحد لدى النصارى. وتحظى أيام الأعياد برمزية مقدسة، ويدوم العيد لدى الحضارات البدائية أشهرا أو أسابيع تتخللها فترات استراحة تمتد ما بين أربعة أو خمسة أيام، ويختم بممارسات طقسية للجنس الجماعي. وفي هذا السياق يقول روجيه كايوا: " ينتهي العيد بفحش ليلي وسط عربدة مجنونة تعجّ بالصخب والحركة اللذين يتحولان إلى رقص موقّع."[58] وهذه الطقوس تجعل من العيد مناسبة تعبر عن أوج الحياة، لأنه يدخل قطيعة على اليومي والرتيب والإغراق في قضاء الحاجات الملحة، وأشار دوركهايم إلى دور العيد في إحداث تعارض بين الحماس والتفجر وتفريغ للطاقة الحيوية وتكرار يومي للانشغالات، ولهذا يمثّل "عالما آخرا للفرد الذي يشعر في أثنائه أنه مدعوم بقوى تتخطاه وتنتقل به من حالة إلى حالة."[59] ويصدق الأمر نفسه على الأعياد الدينية وما يرافقها من فرح وقلق، لأنه يسبق بأيام أو شهر من الصوم، فضلا عن أداء الصلاة وما يصاحبها من خشوع والمثول في حضرة الإلهي والغيبي.

## 7- الحيوان المقدس:

تبدو الرموز الحيوانية شديدة الغموض، ولكن كل "دراسة للأنموذجات الرمزية يجب أن تفتح بقاموس الحيوان وأن تبدأ بتأمل حول عالمية وشعبية الرموز الحيوانية."[60] فالصور الحيوانية هي الأكثر شيوعا. وتخفي الحيوانات رمزية جنسية في الكثير من القصص الدينية، وخاصة الغلمة المحرمة كما لا حظ يونغ.[61]

---

[55]- *Bachelard, La Terre et les rêveries de la volenté, p384*

[56] حمادي المسعودي، المرجع نفسه، ص 232

[57]- ابن حبيب، **المنمّق**، ص 229

[58]- روجيه كايوا، **الإنسان والمقدس**، ص 142

[59]- المرجع نفسه، ص 143

[60]- جيلبير دوران، **الأنثربولوجيا رموزها**، ص 45

[61]- *G G Jing, Métamorphoses et symboles de la libido, Montaigne, Paris 1932 p26*

أما رينيه جيرار، فقد طرح علاقة العنف بالمقدس، واعتبر أن "لعبة المقدس ولعبة العنف وجهان لعملة واحدة ... ويوجد في المقدس أشياء كثيرة غير متجانسة، وهي متضادة ومتناقضة"[62] وليس من الضروري أن يكون المقدس مساويا للعنف أو العكس؛ فالإسلام يحرّم العنف ويقننه وخاصة خلال الأشهر الحرم، ويحث على التسامح والحلم. ويتجلى العنف، لدى جيرار، من خلال الطقس التضحوي؛ فالحيوان المضحى به وسيط رمزي للحد من العنف. ومن ثمة، يكون محل قداسة على اعتبار أن "الديني موجه كلية نحو السلم، ولكن الوسائل التي يستخدمها لتحقيق ذلك لا تخلو أبدا من العنف التضحوي."[63] ولا يمكن أن يخلو الدين من فعل التضحية والقربان، باعتباره وسيلة للغفران والتوبة ومحو الذنوب و"الأضحية الطقوسية دائما مخلوق "بري" يسدد عن أحد المذنبين"[64] وتلعب الضحية دور الوساطة، لأن "القربان هو وسيلة للمدنّس، حتى يتحاور مع المقدس عبر وساطة الضحية".[65]

وفي القرآن، نجد أثرا لهذا المدلول في قوله تعالى: "لَنَ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُم."[66] ويحضر الحيوان المقدس في القرآن بشكل خاص في نموذج ناقة النبي صالح ووصفها بـ"ناقة الله"، ويعني ذلك التشريف والتعظيم لهذا الحيوان بما هي دليل على نبوة النبي صالح، وما يخالطها من عجيب وغريب. فقد بعثت الناقة من حجرة صماء، فتنبجس الروح من الجماد وكان هذا الخلق مساهم في لجم العنف الذي تحول في النهاية نحو الضحية على اعتبار أن العنف "ينتهي دائما إلى إيجاد ضحية بديلة. إنه فجأة يستعيض عن المخلوق الذي أثار سخطه بمخلوق آخر لا صفة خاصة له، لاجتذاب صواعق العنف إليه، سوى كونه قابلا للتضحية ومحتوى في دائرته ويحقق غايته."[67] ويقدم القرآن الناقة على أنها مخلوق محل تبجيل، رغم أن المرويات تشير إلى شعور الجماعة بالغبن في الماء والكلإ منذ ظهور الناقة، فضلا عن مضايقة المواشي واضطرت للرعي في الجبال "فكبر ذلك عليهم حتى حملوا على عقر الناقة."[68] ومع ناقة صالح، أدى الأمر بالمخالفين إلى تقبل انتقام الله وغضبه فالضحية لم تكبح العنف، بل أضحت ترفد سيل العنف الدنس الذي لم تعد الأضحية خليقة بتأدية مهمتها، بل أضحت ترفد سيل العنف الدنس الذي لم يعد في وسعها احتواؤه."[69]

---

[62]- *René Girard, La violence et le sacré, p385*

[63]- *René Girard, des choses cachés depuis la fondation du monde, Editions Grasset et Fasquelle 1978 p 41*

[64]- رينيه جيرار، **العنف والمقدس**، ص 18

[65]- *Marcel Mausse, oeuvres: les fonctions sociales du sacré, Les Editions de Minuit, p 16*

[66]- سورة الحج/37

[67]- *René Girard, La violence et le sacré, p11*

[68]- الثعلبي، **قصص الأنبياء**، دار المعارف، تونس 1989، ص 68

[69]- *René Girard, La violence et le sacré, p65*

وذكر القرآن نماذج من الطير المقدسة، وهو الطير الأبابيل[70] التي اضطلعت بالعنف المقدس، وهو عنف تطهيري، ويستدعي الحيوان المقدس والعجيب التطرق إلى علاقة المقدس بالأسطوري.

## 8- المقدس والأسطوري:

العلاقة بين المقدس والأسطوري متينة إلى الحد الذي يجيز القول بوجود تماهي بنيوي بين القطبين، انطلاقا من تعريف الأسطورة، بما هي تحكي "قصة مقدسة...إنها تروي حدثا تم في الزمن البدئي، زمن البدايات الأسطوري. وبعبارة أخرى، تروي الأسطورة كيف جاءت حقيقة ما إلى الوجود بفضل صنع كائنات خارقة مهما يكن نوع هيئة هذه الحقيقة، حقيقة مطلقة كالكون أو جزءا منه فقط كجزيرة أو نوع نباتي أو سلوك بشري أو مؤسسة، إنها دائما قصة خلق."[71] فالأسطورة تتمحور حول قصة الخلق والحكاية التي تتضمنها، وهو ما دفع ليفي-ستروس إلى الجزم بأنه "لا يمكن جوهر الأسطورة في أسلوب، ولا في عالم السرد، ... بل في الحكاية التي تحكيها."[72] ومن الجدير بالذكر، الإشارة إلى البنية الأسطورية التي يحتويها القرآن، لأنه يحكي قصص الخلق ويعود إلى زمن البدايات، ويركز على القصص المقدسة، ولذلك يرى أركون أنه "نص أسطوري البنية". والقصص القرآني يدل على حكايات يضطلع فيها الله بدور رئيس. وتشترك الأسطورة مع المقدس في عنصر التفسير، لأن كل أسطورة تسعى إلى تفسير شيء ما، مثل الظواهر الطبيعية أو مؤسسة أو عادة معينة، وجوهرها حكاية تفسيرية، وهي موضوع اعتقادي.

## خاتمة:

إن المقدس يحضر في صور متعددة مادية ومعنوية، ولا تمثل النماذج التي ذكرناها إلا بعض تجلياته؛ فهو مطلق الحضور والأشياء المقدسة كثيرة ومتنوعة. فقد عبد الإنسان الجماد من حجر وشجر، فالآلهة كانت حجارة، مثل اللات والعزى ومناة وغيرها من الأنصاب. وكثيرا ما أشار القرآن إلى النخل والزيتون وشجرة الخلد، وكانت العرب تقدس شجرة ذات أنواط ويذبحون تحتها. وعبد الإنسان الأفلاك كالشمس والنجوم؛ فالشمس آلهة سماوية، وكذلك القمر.

ومهما يكن موقع المقدس وتجلياته، فإنه يظل يدل دلالة واضحة عن البيئة التي احتضنته؛ فالتصور الإسلامي للمقدس يعكس البيئة التي انبثق عنها، على الرغم من كونيته وشموليته. فالتصور الإسلامي للمقدس، رغم اتساعه وشموله، فإنه يترجم الشعائر العربية والعادات المحلية، ولعل بساطة المعتقد الإسلامي وروحنته

---

[70]- سورة الفيل/3-4-5

[71]- *M. Eliade, Aspects de Mythe, Editions Gallimard 1963 p15*

[72]- *C .Lévi-Strauss, Anthropologie structurale, Gallimard, p232*

وحيويته، يعكس عالم البداوة الذي احتضنه، فلا وجود لإكليروس ووساطة مما يكسبه مرونة وقدرة على التكيّف، فبدا الدين الإسلامي شديد التكيف مع الثقافة السائدة والعادات الموجودة، فهذبها وحورها وألغى بعضها، وتسامي بالبعض الآخر، وقد تأثر بالعقلية البدوية، لذلك يقول شلحت: "يتميز تدين العربي البدوي بشيء فطري ساذج ومؤثر، فعنده قاعدة ثابتة، قوامها التعالي: فالألوهة البعيدة جدا عن المشاغل البشرية اليومية لا تزال في حالة أولى غامضة وشبه شخصية، حتى تبعده عن كل عبادة خاصة في المقابل وبموجب هذا الغموض يحاصر الخارق العالم ويحركه."[73] وإذا كانت البداوة تمثل قاعا للإسلام، فإن المدنية مثلت حاضنا أساسيا له، ولعل قدرة المقدس الخارقة على صهر التناقضات والاختلافات كانت رافدا من روافد سطوته واستيلائه على النفوس.

[73]- *J. Chelhod, Introduction à la sociologie de l'Islam, Revue de l'histoire des religions, p163*

MominounWithoutBorders

@ Mominoun_sm

Mominoun


الرباط – المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com